عَامُ الحُزْنِ

وَفَاةُ أَبِي طَالِبٍ:

ألح المرض بأبى طالب فلم يلبث أن وافته المنية وكانت وفاته فى رجب سنة عشر من النبوة بعد الخروج من الشعب بستة أشهر وقيل: توفى فى رمضان قبل وفاة خديجة رضى الله عنها بثلاثة أيام [١].

عن المسيب - رضى الله عنه- لَمَّا حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال رسول الله ﷺ : «**يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله**» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية يا أبا طالب: أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة ؛ حتى قال أبو طالب آخره ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ : «**أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**» فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة: ١١٣] وأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ[٢]: «**لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ**».

وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال للنبى ﷺ وذكر عنده عمه فقال[٣]: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ ، قَالَ: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»[٤][٥].

---

(١) الرحيق المختوم ص ١١٧ .

(٢) البخاري ٣٨٨٥ . مناقب الأنصار ، مسلم ٢٠٩ - ٢١٠الإيمان .

(٣) البخاري ٣٨٨٣ مناقب الأنصار ، مسلم ٢٠٩ الإيمان .

(٤) الضحضاح: الضحضاح من الماء ما يبلغ الكعب ، وهو ضد الغمرة ، والمعنى أنه خفف عنه العذاب ، ومعنى لولا أنا: لولا شفاعتي لـه .

(٥) سيرة الرسول أبو عمار ١٥٠ - ١٥٢ .

وَفَاةُ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :

وبعـد وفـاة أبـى طالب بنحو شهرين أو بثلاثة أيام على اختلاف القولين توفيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها- وكانت وفاتها فى شهر رمضان فى السنة العاشـرة مـن النبوة ، ولها خمس وستون سنة على أشهر الأقوال ، ورسول الله ﷺ إذ ذاك فى الخمسين من عمره .

إن خديجـة كانـت مـن نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ وبقيت معه ربع قرن تحن عليـه سـاعة قلقـه وتـؤازره فـى أحـرج أوقاته ، وتعينه على إبلاغ رسالته ، وتشاركه فى مغـارم الجهـاد المر ، وتواسيه بنفسها ومالها ؛ فعَنْ مَسْرُوق عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَـرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ قَالَتْ[1]: فَغِرْتُ يَوْمًا فَقُلْتُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْـرَاءَ الشِّدْقِ ؛ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا قَالَ: **«مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِـنْهَا قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلادَ النِّسَاءِ»** .

وفـى الـصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه قَالَ: أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّـهِ هَـذِهِ خَدِيجَـةُ قَـدْ أَتَـتْ مَعَهَـا إِنَـاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي: **«وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لا صَخَبَ فِيهِ وَلا نَصَبَ»** [2] .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنه قَالَ[3]: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ قَـالَ: أَتَـدْرُونَ مَا هَذَا؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَـنَّةِ خَدِيجَـةُ بِـنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»** .

تَجرُّؤُ قُرَيْشٍ عَلَى النَّبِيِّ بَعْدَ وَفَاةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ :

وقعـت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة فاهتزت مشاعر الحزن والألم فى قلب رسول الله ﷺ ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه ؛ فإنهم تجرأوا عليه وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبى طالب فازداد غمًّا على غم ، قال ابن إسحاق: لما هلك أبو

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/ ١١٨) .

(٢) الرحيق المختوم ١١٧ - ١١٨ .

(٣) رواه أحمد في مسنده ٢٨٩٦ .

طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به فى حياة أبى طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابًا ودخل بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب ، وهى تبكى ورسول الله ﷺ يقول لها: «**لا تبكى يابنية؛ فإن الله مانع أباك**» قال: ويقول بين ذلك: «**ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب**» ولأجل توالى مثل هذه الآلام فى هذا العام سُمِّي بعام الحزن وعرف به فى السيرة والتاريخ(١) .

زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ بِسودَة ثُمَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

لقد كان أصحاب الحبيب يعرفون قدر خديجة - رضى الله عنها - عند النبى ﷺ، فعندما ماتت كانوا يرجون أن يرزقه الله - عز وجل- بما يخفف عنه من آلامه وأحزانه ؛ ولكن لم يكن أي واحد منهم يجرؤ أبدًا أن يكلم النبى ﷺ فى أمر الزواج ؛ فشاء الحق - جلا وعلا- أن تتجرأ واحدة من فضليات نساء الصحابة ألا وهى خولة بنت حكيم ؛ لتعرض هذا الأمر على رسول الله ﷺ من أجل إدخال الفرح والسرور على قلبه المحزون .

عن عائشة رضى الله عنها قالت: لَمَّا هَلَكَتْ خَدِيجَةُ جَاءَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُون **قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلا تَزَوَّجُ قَالَ: «مَنْ؟ قَالَتْ إِنْ شِئْتَ بِكْرًا وَإِنْ شِئْتَ ثَيِّبًا قَالَ فَمَنْ الْبِكْرُ قَالَتْ ابْنَةُ أَحَبِّ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْكَ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: وَمَنْ الثَّيِّبُ؟ قَالَتْ: سَوْدَةُ ابْنَةُ زَمْعَةَ قَدْ آمَنَتْ بِكَ وَاتَّبَعَتْكَ عَلَى مَا تَقُولُ قَالَ: فَاذْهَبِي فَاذْكُرِيهِمَا عَلَيَّ فَدَخَلَتْ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَتْ: يَا أُمَّ رُومَانَ مَاذَا أَدْخَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ- عَلَيْكُمْ مِنْ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ قَالَتْ: وَمَا ذَاكِ؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخْطُبُ عَلَيْهِ عَائِشَةَ قَالَتْ: انْتَظِرِي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى يَأْتِيَ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَاذَا أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، قَالَ: وَمَا ذَاكِ؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخْطُبُ عَلَيْهِ عَائِشَةَ قَالَ: وَهَلْ تَصْلُحُ لَهُ إِنَّمَا هِيَ ابْنَةُ أَخِيهِ؟ فَرَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَتْ لَهُ ذَلِكَ قَالَ: ارْجِعِي إِلَيْهِ فَقُولِي لَهُ: أَنَا أَخُوكَ وَأَنْتَ أَخِي فِي الإِسْلامِ وَابْنَتُكَ تَصْلُحُ لِي فَرَجَعَتْ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ قَالَ: انْتَظِرِي وَخَرَجَ قَالَتْ أُمُّ رُومَانَ: إِنَّ مُطْعِمَ بْنَ عَدِيٍّ قَدْ كَانَ ذَكَرَهَا عَلَى ابْنِهِ فَوَاللَّهِ مَا وَعَدَ مَوْعِدًا قَطُّ فَأَخْلَفَهُ لأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى مُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ وَعِنْدَهُ امْرَأَتُهُ أُمُّ الْفَتَى فَقَالَتْ: يَا بْنَ أَبِي قُحَافَةَ لَعَلَّكَ مُصْبٍ صَاحِبَنَا مُدْخِلُهُ فِي**

---

(١) الرحيق المختوم ص ١١٨ .

دينكَ الَّذي أَنْتَ عَلَيْه إنْ تَزَوَّجَ إلَيْكَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِلْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ آقَوْلَ هَذه تَقُولُ قَالَ: إنَّهَا تَقُولُ ذَلكَ فَخَرَجَ منْ عنْده وَقَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا كَانَ فِي نَفْسه منْ عدَته الَّتِي وَعَدَهُ فَرَجَعَ فَقَالَ لِخَوْلَةَ: ادْعِي لِي رَسُولَ اللَّه ﷺ فَدَعَتْهُ فَزَوَّجَها إِيَّاهُ وَعَائشَةُ يَوْمَئذ بنْتُ ستِّ سنينَ ثُمَّ خَرَجَتْ فَدَخَلَتْ عَلَى سَوْدَةَ بنْت زَمْعَةَ فَقَالَتْ مَاذَا: أَدْخَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْك منْ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَة؟ قَالَتْ: مَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللَّه ﷺ أَخْطُبُك عَلَيْه قَالَتْ: وَددْتُ ادْخُلِي إِلَى أَبِي فَاذْكُرِي ذَاكَ لَهُ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ أَدْرَكَهُ السِّنُّ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْ الْحَجِّ فَدَخَلَتْ عَلَيْه فَحَيَّتْهُ بتَحيَّة الْجَاهليَّة فَقَالَ: مَنْ هَذه؟ فَقَالَتْ: خَوْلَةُ بنْتُ حَكيمٍ قَالَ: فَمَا شَأْنُك؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْد اللَّه أَخْطُبُ عَلَيْه سَوْدَةَ قَالَ: كُفْءٌ كَرِيمٌ مَاذَا تَقُولُ صَاحبَتُك؟ قَالَتْ: تُحبُّ ذَاكَ قَالَ: ادْعُهَا لِي فَدَعَيْتُهَا قَالَ: أَيْ بُنَيَّةُ إِنَّ هَذه تَزْعُمُ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْد اللَّه بْنِ عَبْد الْمُطَّلب قَدْ أَرْسَلَ يَخْطُبُك وَهُوَ كُفْءٌ كَرِيمٌ أَتُحبِّينَ أَنْ أُزَوِّجَك به؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: ادْعيه لِي فَجَاءَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِلَيْه فَزَوَّجَهَا إيَّاهُ فَجَاءَهَا أَخُوهَا عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ منْ الْحَجِّ فَجَعَلَ يَحْثي في رَأْسه التُّرَابَ فَقَالَ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ: لَعَمْرُكَ إنِّي لَسَفيهٌ يَوْمَ أَحْثي فِي رَأْسي التُّرَابَ أَنْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ سَوْدَةَ بنْتَ زَمْعَةَ قَالَتْ عَائشَةُ: فَقَدمْنَا الْمَدينَةَ فَنَزَلْنَا في بَنِي الْحَارث بْنِ الْخَزْرَجِ في السُّنْحِ[1] قَالَتْ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَدَخَلَ بَيْتَنَا وَاجْتَمَعَ إلَيْه رِجَالٌ منْ الأَنْصَار وَنسَاءٌ فَجَاءَتْنِي أُمِّي وَإِنِّي لَفِي أُرْجُوحَة بَيْنَ عَذْقَيْنِ[2] تَرْجَحُ بِي فَأَنْزَلَتْني منْ الأُرْجُوحَة وَلِي جُمَيْمَةٌ[3] فَفَرَقَتْهَا وَمَسَحَتْ وَجْهِي بشَيْءٍ منْ مَاء ثُمَّ أَقْبَلَتْ تَقُودُنِي حَتَّى وَقَفَتْ بِي عنْدَ الْبَاب وَإِنِّي لأَنْهَجُ حَتَّى سَكَنَ منْ نَفْسي ثُمَّ دَخَلَتْ بِي فَإِذَا رَسُولُ اللَّه ﷺ جَالسٌ عَلَى سَرِيرٍ فِي بَيْتنَا وَعنْدَهُ رِجَالٌ وَنسَاءٌ منْ الأَنْصَار فَأَجْلَسَتْني فِي حجْره ثُمَّ قَالَتْ: هَؤُلاء أَهْلُك فَبَارَكَ اللَّهُ لَك فيهمْ وَبَارَكَ لَهُمْ فيك، فَوَثَبَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فَخَرَجُوا وَبَنَى بِي رَسُولُ اللَّه ﷺ فِي بَيْتنَا مَا نُحرَتْ عَلَيَّ جَزُورٌ وَلا ذُبحَتْ عَلَيَّ شَاةٌ حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْنَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ بجَفْنَة[4] كَانَ يُرْسلُ بهَا إِلَى رَسُول اللَّه ﷺ إذَا دَارَ إِلَى نسَائه وَأَنَا يَوْمَئذٍ بنْتُ تسْعِ سنينَ» [5] [6].

وهذا يدلنا أن محبة رسول الله ﷺ ليست في مجرد الاتباع له بل المحبة له هي أساس

---

(١) مكان بعوالي المدينة فيه منازل بني الحارث بن الخزرج .

(٢) العذق: النخلة .

(٣) جميمة: الشعر الذي يسقط بين المنكبين .

(٤) الجفنة: القصعة التي فيها الطعام .

(٥) سيرة الرسول أبو عمار ١٥٢ - ١٥٤ .

(٦) رواه أحمد في مسنده ٢٥٢٤١ .

الاتباع وباعثه ؛ فلولا المحبة العاطفية فى القلب لما وجد وازع يحمل على الاتباع فى العمل[١] .

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

تنطوى هذه الفترة من حياته ﷺ على العديد والعديد من العبر والعظات والدروس المستفادة نذكر منها ما يلى:-

١- كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ :

وهنا كان لا بُدَّ لنا من الوقوف على أمرين مُهمَّين ألا وهما:

أولاً: لقد كان من الممكن أن لا يأمر الله رسوله بإنذار عشيرته وذوى قرباه ؛ اكتفاءً بعموم أمره الآخر وهو قوله: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر: ٩٤] إذ يدخل أفراد عشيرته وذوو قرباه فى عموم الدين سيصدع أمامهم بالدعوة والإنذار ، فما الحكمة من خصوصية الأمر بإنذار العشيرة؟! .

والجواب: أنَّ فى هذا إلماحا إلى درجة المسئولية التى تتعلق بكل مسلم عمومًا وأصحاب الدعوة خصوصًا ، فأدنى درجة فى المسئولية هى مسئولية الشخص عن نفسه . .

أما الدرجة التى تليها فهى مسئولية المسلم عن أهله ، ومن يلوذون به من ذوى قرباه .

وتوجيهًا إلى القيام بحق هذه المسئولية خصص الله الأهل والأقارب بضرورة الإنذار والتبليغ بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به . .

وهذه الدرجة من المسئولية يشترك فى ضرورة تحمل أعبائها كل مسلم صاحب أسرة أو قربى ، وليس من اختلاف بين دعوة الرسول فى قومه ودعوة المسلم فى أسرته بين أقاربه إلا أن الأول يدعو إلى شرع جديد مُنَزَّل عليه من الله ، وهذا يدعو بدعوة الرسول الذى بعث إليه ، فهو يبلغ عنه وينطق بلسانه . وكما لا يجوز للنبى أو الرسول فى قومه أن يقعد عن تبليغهم ما أوحى إليه ، فكذلك لا يجوز لرب الأسرة أن يقعد عن تبليغ أهله وأسرته ذلك ، بل يجب أن

---

(١) فقه السيرة للبوطي ١٤٣ - ١٤٧ .

يحملهم على اتباع ذلك حملاً ويلزمهم به إلزامًا .

أما الدرجة الثالثة: فهى مسئولية العالم عن حيه أو بلدته ، ومسئولية الحاكم عن دولته وقومه .

ثانيًا: ومن الطبيعى أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأربعين إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية ، فَبَدْءُ الدعوة بالعشيرة قد يعيين على نصرته وتأييده وحمايته ، كما أن القيام بالدعوة فى مكة لابد أن يكون له أثر خاص لِمَا لهذا البلد من مركز دينى خطير ، فَجلْبُهَا إلى حظيرة الإسلام لابد أن يكون له وقع كبير على بقية القبائل ؛ على أن هذا لا يعنى أن رسالة الإسلام فى أدوارها الأولى محدودة بقريش ؛ لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن ، اتخذ الدعوة فى قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية ، والواقع أن كثيرًا من الآيات المكية كانت تنص على القرآن: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [التكوير: ٢٧] (١) .

٢- سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ:

أول ما قد يخطر فى بال المتأمل ، حينما يرى قصة ما لقيه رسول الله ﷺ وأصحابه من المشركين ، من صنوف الإيذاء والتعذيب هو أن يتساءل: فيم هذا العذاب الذى لقيه النبى ﷺ وأصحابه وهم على الحق؟! ولماذا لم يعصمهم الله - عز وجل- منه وهم جنوده وفيهم رسوله يدعون إلى دينه ويجاهدون فى سبيله .

والجواب: أن أول صفة للإنسان فى الدنيا أنه مكلف ، أى: أنه مطالب من قبل الله - عز وجل- بحمل ما فيه كلفة ومشقه ؛ وأمر الدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف ، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله تعالى ؛ إذ لا معنى للعبودية - الله تعالى- إن لم يكن ثمَّةَ تكليف ، وعبودية الإنسان لله - عز وجل- ضرورة من ضرورات ألوهيته - سبحانه وتعالى- فلا معنى للإيمان إن لم ندرك عبوديتنا له .

فقد استلزمت العبودية - إذن- التكليف ، واستلزم التكليف تحمل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء ، ومن أجل هذا كان واجب عباد الله فى هذه الدنيا تحقيق أمرين اثنين:

أولهما: التمسك بالإسلام وإقامة المجتمع الإسلامى الصحيح .

---

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٩٤ - ٩٥ .

ثانيهما: سلوك السبل الشاقة إليه واقتحام المخاطر وبذل المهَج والمال من أجل تحقيق ذلك .

أى أن الله - عز وجل- كلفنا بالإيمان بالغاية ، وكلفنا إلى جانب ذلك بسلوك الوسيلة الشاقة الطويلة إلى هذه الغاية مهما بلغت المسألة فى خطورتها وصعوبتها ، ولو شاء الله لجعل السبيل إلى إقامة المجتمع الإسلامى بعد الإيمان به ، سهلا مُعبَّدًا ، ولكن السير فى هذه السبيل لا يدل حينئذ على شيء من عبودية السالك لله - عز وجل- وعلى أنه قد باع حياته وماله له - عز وجل- يوم أن أعلن الإيمان به وعلى أن جميع أهوائه تابعة ومنقادة لما جاء به الرسول ﷺ ولأمكن حينئذ أن يلتقى على هذه الجادَّة[1] المؤمن والمنافق والصادق والكاذب ، فلا يتمحص الواحد منهم عن الآخر .

فلو تُرِكَ الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله تعالى على ألسنتهم فقط ، لاستوى الصادق والكاذب ، ولكن الفتنة والابتلاء ، هما الميزان الذى يميز الصادق عن الكاذب ، وصدق الله القائل فى محكم كتابه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] والقائل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢] .

وإذا كانت هذه هى سنة الله فى عباده ، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ؛ حتى مع أنبيائه وأصفيائه ، من أجل ذلك أُوذِىَ رسول الله ﷺ وأوذى من قبله جميع الأنبياء والرسل ، ومن أجل ذلك أوذي أصحاب رسول الله ﷺ حتى مات منهم من مات تحت العذاب ، وعمى من عمى ، رغم عظيم فضلهم وجليل قدرهم عند الله عز وجل .

ولذا لا ينبغى للمسلم أن يتوهم اليأس ، إذا ما عانى شيئًا من المشقة أو المحنة ، بل العكس هو الأمر المنسجم مع طبيعة هذا الدين ، أى أن على المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيدا من الضر والنكبات سعيًا إلى تحقيق أمر ربهم عز وجل ، وتأمل فإنك ستجد برهانَ هذا جليًّا فى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ

---

(١) الجادة: وسط الطريق ، والطريق الأعظم الذي يجمع كل الطرق .

مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤] (١).

٣- إِذَا فُقِدَ الدِّينُ أَوْ غُلِبَ عَلَيْهِ، لَمْ يُغْنِ مِنْ وَرَائِهِ الوَطَنُ وَالمَالُ وَالأَرْضُ:

إن الدين والاستمساك به وإقامة دعائمه، أساس ومصدر لكل قوة، وهو السياج لحفظ كل حق من مال وأرض وحرية وكرامة، ومن أجل هذا كان واجب الدعاة إلى الإسلام والمجاهدين فى سبيله أن يجندوا كل إمكاناتهم لحماية الدين ومبادئه، وأن يجعلوا من الوطن والأرض والمال والحياة وسائل لحفظ العقيدة وترسيخها، حتى إذا اقتضى الأمر، بذل ذلك كله فى سبيلها وجب بذله.

ذلك أن الدين إذا فقد أو غلب عليه، لم يغن من ورائه الوطن والمال والأرض، بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضًا من ورائه، أما إذا قوى شأنه وقامت فى المجتمع دعائمه ورسخت فى الأفئدة عقيدته، فإن كل ما كان قد ذهب فى سبيله من مال وأرض ووطن يعود.. يعود أقوى من ذى قبل حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة.

ولقد جرت سنة الله فى الكون على مر التاريخ أن تكون القوى المعنوية هى الحافظة للمكاسب والقوى المادية، فمهما كانت الأمة غنية فى خلقها وعقيدتها السليمة ومبادئها الاجتماعية الصحيحة، فإن سلطانها المادى يغدو أكثر تماسكا وأرسخ بقاءً وأمنع جانبًا، ومهما كانت فقيرة فى خلقها مضطربة فى عقيدتها تائهة أو جانحة فى نظمها ومبادئها؛ فإن سلطانها المادى يغدو أقرب إلى الاضمحلال ومكتسباتها المادية أسرع إلى الزوال.

وقد تصادف أن تجد أمة تائهة فى عقيدتها عن جادة الصواب منحطة فى مستواها الخلقى والاجتماعى، وهى مع ذلك واقفة على قدميها من حيث القوة والسلطان المادى، ولكنها فى الحقيقة تمر بسرعة نحو هاوية سحيقة، ومثل هذه الحركة تبصرها عين التاريخ الساهرة لا عين الإنسان الغافل نظرًا لقصر عمر الإنسان أمام طول عمر التاريخ.

وقد تصادف أن تجد أُمَّةً قد تعرَّتْ عن كل مقوماتها المادية من ثروة ومال ووطن فى سبيل الحفاظ على العقيدة الصحيحة.. وفى سبيل النظام الاجتماعى السليم، ولكن ما هى إلا فترة قصيرة؛ حتى تجد أرباب هذه العقيدة الصحيحة وما يتبعها من الخلق والنظام الاجتماعى السليم قد استحوذوا على وطنهم المسلوب، وما لهم المغصوب،

(١) فقه السيرة للبوطي ٨٥ - ٨٦ مختصرًا.

وعادت إليهم قوتهم مضاعفة . .

ولذا فقد كان من أسس الدعوة إلى الإسلام التضحية بالمال والوطن والحياة فى سبيلة ،فبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم المال والوطن والحياة . .

ومن أجل هذا شرع مبدأ الهجرة فى الإسلام ، فأشار الرسول ﷺ على أصحابه- بعد أن نالهم من أذى المشركين ما خشى عليهم معه الفتنة فى الدين إلى الهجرة والخروج من الوطن[1] .

٤- حِكْمَةُ اللَّهِ فِي أَنْ يَفْقِدَ الرَّسُولُ ﷺ عَمَّهُ وَزَوْجَتَهُ خَدِيجَةَ :

١- لو أن أبا طالب بقى إلى جانب ابن أخيه يحميه إلى أن تقوم الدولة الإسلامية فى المدينة لتوهم البعض أنه كان وراء هذه الدعوة ، وَلَجَاءَ من يطيل ويطنب فى بيان الحظ الحسن الذى تهيأ للرسول ﷺ أثناء قيامه بالدعوة ، بسبب حماية عمه له ، بينما لم يتهيأ هذا الحظ لغيره من المسلمين من حوله ، فأوذوا وهو محفوظ الجانب ، وتعذبوا وهو مستريح البال .

٢- كما تتجلى حقيقتان هامتان فى فقدان النبى لعمه أبى طالب وزوجته خديجة رضى الله عنها:

أولاً: أن الحماية والعناية والنصر من الله عز وجل ، ولقد تعهد الله أن يعصم رسوله من المشركين والأعداء ، فسواء كان ثمَّة من يحميه من الناس أو لم يكن ، فهو معصوم من الناس وستبلغ دعوته منتهاها من النصر والتوفيق .

ثانيًا: ليس معنى العصمة من الناس أن لا يرى منهم إيذاءً أو عذابًا ، وإنما معنى العصمة التى تعهد بها الله عز وجل بقوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة: ٦٧]

العصمة من القتل ومن أى صد أو عدوان من شأنه إيقاف الدعوة الإسلامية فقد قضت حكمة الله - تعالى- أن يذوق الأنبياء من ذلك قدرًا غير يسير ، وذلك لا يُنَافِى العصمة التى وعد بها أنبياءه ورسله .

ولذلك يقول الله - عز وجل- لنبيه بعد قوله: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٥] .

---

(١) فقه السيرة للبوطي ١٠٠ - ١٠١ بتصرف .

ومن الحكم الجليلة لما قضت به سنة الله عز وجل، من أن يلاقى الرسول ﷺ ما لاقى من المحنة فى طريق الدعوة، أن يستسلمها ويستخفّ بها عامة المسلمين فى كل عصر ممن أنيطت بهم مسئولية الدعوة الإسلامية، فلو أن النبى ﷺ نجح فى دعوته بدون أى مشقة أو جهد، لطمع أصحابه والمسلمون من بعده بأن يستريحوا كما استراح، ولاستقلوا المصائب والمحن التى قد يجدونها فى طريقهم إلى الدعوة الإسلامية(١).

المرْحَلَة الثَّالِثَةُ: دَعْوَةُ الإسْلَامِ خَارِجَ مَكَّة

الرَّسُولُ ﷺ فِي الطَّائِفِ:

لَمَّا هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النُّصْرَة من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله - عز وجل- ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد يا ليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى، فدعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال لهم أحدهم: هو يمرط (٢) ثياب الكعبة إن كانَ الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم: «**إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى**» وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه، فيذئرهم (٣) ذلك عليه، فلم يفعلوا، وأغروا به سفاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به؛ حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سماطين(٤) وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه؛ حتى اختضب نعلاه بالدماء.

وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه؛ حتى أصابه شجاج فى رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى أَلْجَؤُوُه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه

---

(١) فقه السيرة للبوطي ١٠٥ - ١٠٦، باختصار.
(٢) يمرط: يمزق.
(٣) يذئرهم: يجرئهم ويثيرهم.
(٤) سماطين: صفين.

obeikandi.com

رجعوا عنه وأتى رسول الله ﷺ إلى حبلة [١] من عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار [٢].

تَوَجُّهُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى رَبِّهِ بِالشَّكْوَى:

فلما اطمأن قلب رسول الله ﷺ قال: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتهجمني [٣] أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى؛ حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**» [٤].

إِسْلَامُ عَدَّاسٍ:

فلما رآه ابنا ربيعة، وما لقي، تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا، يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كُلْ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده، قال: «**باسم الله**» ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «**ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟**» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: «**من قرية الرجل الصالح يونس بن متى**» فقال له عداس، وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبي**» فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، دينك خير من دينه [٥].

---

(١) حبلة: شجر العنب.
(٢) ابن هشام (١ / ٢٥٧ - ٢٥٨)، الرحيق المختوم ١٢٥.
(٣) يتجهمه: استقبله بوجه كريه غير مرحب ولا راغب فيه.
(٤) ابن هشام (١ / ٢٥٨ - ٢٥٩).
(٥) ابن هشام (١ / ٢٥٩).

اللَّهُ - عزَّ وجَلَّ- يُرسلُ إلَى النَّبِيِّ ﷺ جبْريل ومَلكَ الجِبَال:

عن عائشة - رضى الله عنها- قالت: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ[(١)]: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ ﷺ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِك مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَة إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْد يَاليلَ بْنِ عَبْد كُلال فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلا وَأَنَا بقَرْنِ الثَّعَالب[(٢)] فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بسَحَابَة قَدْ أَظَلَّتْني فَنَظَرْتُ فَإِذَا فيهَا جبْريلُ فَنَادَاني فَقَالَ: إنَّ اللَّهَ قَدْ سَمعَ قَوْلَ قَوْمكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْك وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجبَال لتَأْمُرَهُ بمَا شئْتَ فيهمْ فَنَادَاني مَلَكُ الْجبَال فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلكَ فيمَا شئْتَ إنْ شئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الأَخْشَبَيْنِ[(٣)] فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[(٤)].

إسْلامُ نفرٍ منَ الجنِّ:

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف؛ حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى، فمر به نفر من الجن، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١] وقال تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى

(١) البخاري ٣٢٣١، مسلم ١٧٩٥.
(٢) قرن الثعالب: قرن المنازل.
(٣) الأخشبين: هما جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله وهو قعيقعان.
(٤) سيرة الرسول - أبو عمار ١٦٢، ١٦٣ نقلاً من البخاري ومسلم.

ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن: ١ - ١٥].

عَوْدَةُ الرَّسُولِ ﷺ إلى مَكَّةَ:

ثم عاد رسول الله ﷺ إلى مكة ومعه زيد بن حارثة، فقال له زيد: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعنى: قريشًا، فقال: «**يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه**».

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحراء، وبعث رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق؛ ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب، فبعث إلى المطعم بن عدى، فقال المطعم: نعم، ثم تسلَّح ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمدًا، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد؛ حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى: يا معشر قريش إنى قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته.

وقيل: إن أبا جهل سأل مطعمًا: أمُجِيرٌ أنت أم متابع؟ أي: مسلم؟ قال: بل مُجِير، قال: قد أجرنا من أجرت[1].

العِبَرُ والعِظَاتُ:

خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، ولكنه رأى منهم الكثير من العذاب... ونستطيع أن نستخلص من ذهابه ﷺ الأمور التالية:

١- إن ما كان يلاقيه النبى ﷺ من مختلف ألوان المحنة، لا سيما هذا الذى رآه فى ذهابه إلى الطائف، إنما كان من جملة أعماله التبليغية للناس، فكما أنه جاء يبلغنا العقيدة

(١) الرحيق المختوم ١٢٧ - ١٢٨.

الصحيحة عن الكون وخالقه ، وأحكام العبادات والأخلاق والمعاملات ، كذلك جاء يبلغ المسلمين ما كلفهم الله به من واجب الصبر ، ويبين لهم كيفية تطبيق الصبر والمصابرة اللذين أمر بهما في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

٢- استقبال رسول الله ﷺ تلك المحن راضيًا صابرًا محتسبًا وكان بوسعه أن ينتقم من الذين آذوه ، ودليل ذلك حديث السيدة عائشة .

٣- للمحن والمصائب حكم ، من أهمها أنها تسوق صاحبها إلى باب الله - تعالى- وتلبسه جلباب العبودية له ، فليس إذا بين الصبر على المكاره والشكوى إلى الله تعالى ، بل الواقع أن رسول الله ﷺ كان يعلمنا فى حياته كلا الأمرين ، فكان بصبره الشديد على المحن يعلمنا أن هذه هى وظيفة المسلمين عامة والدعاة إلى الله خاصة ، وكان بطول ضراعته والتجائه إلى الله - تعالى- يعلمنا وظيفة العبودية ومقتضياتها .

٤- إذا تأملت فى مشاهد سيرته ﷺ مع قومه ، وجدت أن ما كان يجده ﷺ من الأذى فى هذه المشاهد قد يكون قاسيًا شديدًا ؛ بيد أنك واجد فى كل مشهد منها ما يعتبر ردًّا إلهيًّا على ذلك الإيذاء ؛ كى يكون فى ذلك مواساة وسلوى للرسول ﷺ ، وكى لا يتجمع فى النفس من عوامل التألم والضجر ما يدخل إليها اليأس ففى مشهد هجرته ﷺ إلى الطائف ، وما قد اكتنفها من العذاب المضنى - عذاب الإيذاء وعذاب الخيبة - تجد ردًّا إلهيًّا واضحًا على سفاهة أولئك الذين آذوه ولحقوا به واعتذارًا له عن سفاهتهم وغلظتهم ، تجد ذلك فى مظهر الرجل النَّصرانى (عداس) حينما جاء يسعى إليه وفى يده طبق فيه عنب ثم انكبَّ فجعل يقبل رأسه ويديه ورجليه عندما أخبره أنه نبى[1] .

كذلك النصر الغيبى الذى أمده الله عليه من فوق سبع سموات بإرسال جبريل وملك الجبال ، وكذلك إسلام نفر من الجن كان هذا نصرًا آخَرَ أمدَّهُ الله من كنوز غيبه المكنون بجُنوده التى لا يعلمها إلا هو . . ثم إن الآيات التى نزلت بصدد هذا الحادث كانت فى طيها بشائر بنجاح دعوته ﷺ ، وأن أى قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ

(١) فقه السيرة البوطي ١٠٩ - ١١١ مختصرًا .

أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الجن: ١١ - ١٢] .

أمام هذه النصرة والبشائر أقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس التى كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطرودًا مدحورًا ؛ حتى صمم على العودة إلى مكة وعلى القيام باستئناف خطته الأولى فى عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وبجِدٍّ وحماس[١] .

٥- ما كان يفعله زيد بن حارثة - رضى الله عنه- من وقاية للرسول ﷺ بنفسه من حجارة السفهاء ؛ حتى إنه شُجَّ فى رأسه عدة شجاج نموذج لِمَا ينبغى أن يكون عليه حال المسلم بالنسبة لقائد الدعوة من حماية له بنفسه ودفاعه عنه ، وإن اقتضى ذلك التضحية بحياته وكذلك نموذج لحبه الصحابة للرسول ﷺ[٢] .

عَرْضُ الإِسْلَامِ عَلَى القَبَائِلِ وَالأَفْرَادِ :

عاد النبى ﷺ إلى مكة ؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد ، وكان يعرض نفسه فى موسم الحج من كل سنة على القبائل التى تتوافد إلى البيت الحرام ، يتلو عليهم كتاب الله ويدعوهم إلى توحيد الله فلا يستجيب له أحد[٣] .

قال الزهرى: وكان ممن يسمَّى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صَعْصَعة ، ومُحَارب بن خَصَفة ، وفَزارَة ، وغَسَّان ، ومُرَّة ، وحنيفة ، وسُلَيْم ، وعَبْس ، وبنُو نصر ، وبنُو البكاء ، وكِنْدَة ، وكَلْب ، والحارث ابن كَعْب ، وعُذْرَة ، والحَضَارِمَة ، فلم يستجب منهم أحد . .

كان عرض النبى ﷺ الإسلام على القبائل ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة ، ولكن الأكثر كان فى السنة العاشرة[٤] .

---

(١) الرحيق المختوم ١٢٦ - ١٢٧ مختصرًا .
(٢) فقه السيرة للبوطي ١١١ - ١١٢ .
(٣) فقه السيرة للبوطي ١٢٢ .
(٤) الرحيق المختوم ص ١٢٩ .

عَرْضُ الإِسْلَامِ عَلَى الأَفْرَادِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ مَكَّةَ:

كما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل، عرضة على الأفراد ومنهم:

١- إِسْلَامُ إِيَاس بنِ مُعَاذ:

قال ابن إسحاق: عن محمود بن لبيد قال: لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: «**هل لكم فى خير مما جئتم له؟**» فقالوا له: وما ذاك؟ قال: «**أنا رسول الله بعثنى إلى العباد؛ أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل علىَّ الكتاب**».

ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ؟ وكان غلامًا حدثًا: أى قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعَمْرِى لقد جئنا لغير هذا فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج.

ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، قال محمود بن لبيد: فأخبرنى من حضره من قومه عند موته: أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله - تعالى- ويكبر ويحمد ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع[1].

٢- إِسْلَامُ سُوَيْدِ بنِ الصَّامِت:

كان شاعرًا لبيبًا من سكان يثرب يسميه قومه الكامل، لجلده وشعره وشرفه ونسبه، جاء مكة حاجًّا أو معتمرًا، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فقال: لعل الذى معك مثل الذى معى، فقال له رسول الله ﷺ: «**وما الذى معك؟**» قال: حكمة لقمان، قال: «**اعرضها علىَّ**» فعرضها فقال له رسول الله ﷺ: «**إن هذا الكلام حسن، والذى معى أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى على، هو هدى ونور**» فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام، فأسلم.. وقال: إنَّ هذا لقول حسن، فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل يوم

---

(١) ابن هشام (١ / ٢٦٤).

بعاث ، وكان إسلامه فى أوائل سنة ١١ من النبوة [١] .

٣ـ إِسْلاَمُ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ:

رَوَى البُخَارِيُّ قَالَ ابْنُ عَبَّاس[٢]: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِإِسْلامِ أَبِي ذَرٍّ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى ، قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ: كُنْتُ رَجُلاً مِنْ غِفَار فَبَلَغَنَا أَنَّ رَجُلاً قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقُلْتُ لأَخِي: انْطَلِقْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ كَلِّمْهُ وَأْتِنِي بِخَبَرِهِ فَانْطَلَقَ فَلَقِيَهُ ثُمَّ رَجَعَ فَقُلْتُ: مَا عِنْدَكَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَيَنْهَى عَنْ الشَّرِّ فَقُلْتُ لَهُ: لَمْ تَشْفِنِي مِنْ الْخَبَرِ فَأَخَذْتُ جِرَابًا وَعَصًا ثُمَّ أَقْبَلْتُ إِلَى مَكَّةَ فَجَعَلْتُ لا أَعْرِفُهُ وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ وَأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ وَأَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ: كَأَنَّ الرَّجُلَ غَرِيبٌ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: فَانْطَلِقْ إِلَى الْمَنْزِلِ قَالَ: فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ لا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ وَلا أُخْبِرُهُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ لأَسْأَلَ عَنْهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يُخْبِرُنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ: أَمَا نَالَ لِلرَّجُلِ يَعْرِفُ مَنْزِلَهُ بَعْدُ قَالَ: قُلْتُ: لا قَالَ: انْطَلِقْ مَعِي قَالَ فَقَالَ: مَا أَمْرُكَ وَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ الْبَلْدَةَ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنْ كَتَمْتَ عَلَيَّ أَخْبَرْتُكَ قَالَ: فَإِنِّي أَفْعَلُ قَالَ: قُلْتُ لَهُ بَلَغَنَا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ هَا هُنَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَأَرْسَلْتُ أَخِي لِيُكَلِّمَهُ فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِنِي مِنْ الْخَبَرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ فَقَالَ لَهُ: أَمَا إِنَّكَ قَدْ رَشَدْتَ هَذَا وَجْهِي إِلَيْهِ فَاتَّبِعْنِي ادْخُلْ حَيْثُ أَدْخُلُ فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ قُمْتُ إِلَى الْحَائِطِ كَأَنِّي أُصْلِحُ نَعْلِي وَامْضِ أَنْتَ فَمَضَى وَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ وَدَخَلْتُ مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: اعْرِضْ عَلَيَّ الإِسْلامَ فَعَرَضَهُ فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي فَقَالَ لِي: «**يَا أَبَا ذَرٍّ اكْتُمْ هَذَا الأَمْرَ وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ**» فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيهِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ فَقَامُوا فَضُرِبْتُ لأَمُوتَ فَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: وَيْلَكُمْ تَقْتُلُونَ رَجُلاً مِنْ غِفَارَ وَمَتْجَرُكُمْ وَمَمَرُّكُمْ عَلَى غِفَارَ فَأَقْلَعُوا عَنِّي فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الْغَدَ رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالأَمْسِ فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ فَصُنِعَ بِي مِثْلَ مَا صُنِعَ بِالأَمْسِ وَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالأَمْسِ قَالَ: فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ إِسْلامِ أَبِي ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ .

---

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٧٤ .

(٢) (صحيح) البخاري ٣٥٢٢ .

٤ـ إسلامُ الطُّفَيلِ بنِ عَمرو الدَّوسِيِّ:

كان رجلاً شريفًا وشاعرًا لبيبًا رئيس قبيلة دوس، وكانت لقبيلته إمارة أو شبه إمارة في بعض نواحي اليمن، قدم مكة في عام ١١ من النبوة؛ فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجل تحية وأكرم تقدير، وقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمعنَّ منه شيئًا.

يقول الطفيل: فوالله ما زالوا بي؛ حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفًا فرقًا من أن يبلغني شيء من قوله، قال: فغدوت إلى المسجد فإذا هو قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريبًا منه؛ فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا فقلت في نفسي: واثكل أمي؛ والله إني رجل لبيبٌ شاعرٌ، ما يخفى على الحسن من القبيح؛ فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته، فمكثت حتى انصرف إلى بيته فاتبعته؛ حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فعرضت عليه قصة مقدمي وتخويف الناس إياي وسد الأذن بالكرسف.. ثم سماع بعض كلامه وقلت له: اعرض عليَّ أمرك، فعرض على الإسلام وتلا على القرآن، فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت له: إني مطاع في قومي، وراجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام؛ فادع الله أن يجعل لي آية فدعا.

وكانت آيته أنه لَمَّا دنا من قومه جعل الله نورًا في وجهه مثل المصباح، فقال: اللهم في غير وجه، أخشى أن يقولوا: هذه مثله، فتحول النور إلى سوطه، فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما، وأبطأ عليه قومه في الإسلام لكن لم يزل بهم؛ حتى هاجر بعد الخندق[1] ومعه سبعون أو ثمانون بيتًا من قومه، وقد أبلى في الإسلام بلاءً حسنًا وقُتِلَ شهيدًا يوم اليمامة.

---

(١) بل وبعد الحديبية فقد قدم المدينة رسول الله بخيبر.

٥ ـ إسلامُ ضِمَادِ الأَزْدِيّ:

كان من أزد شنوءة من اليمن ، وكان يرقى من هذا الريح ؛ قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون: إنّ محمدًا مجنون ، فقال: لو أني أتيت هذا الرجل ؛ لعل الله يشفيه على يدي ، فلقيه ، فقال: يا محمد إنى أرقى من هذا الريح ، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ : «**إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. أما بعد** ، **فقال: أعد على كلماتك هؤلاء**» فأعادهن عليه رسول ﷺ ثلاث مرات ، فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ؛ فما سمعت مثل كلمات هؤلاء ولقد بلغن قاموس[1] البحر ، هات يدك أبايعك على الإسلام فبايعه[2] .

سِتُّ نَسَمَاتٍ طَيِّبَة مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ:

وفى موسم الحج من سنة ١١ من النبوة . . يوليو سنة٦٢٠م ، وجدت الدعوة الإسلامية بذورًا صالحة سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات ؛ اتقى المسلمون فى ظلالها الوارفة عن لفحات الظلم والطغيان طيلة أعوام .

وكان من حكمته ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله أنه كان يخرج إلى القبائل فى ظلال الليل ؛ حتى لا يحول بينه وبينهم لأحد من أهل مكة المشركين .

خرج كذلك ليلة ومعه أبو بكر وعلى فمر على منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة وكلمهم فى الإسلام ، وقد دارت بين أبى بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة ، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة غير أنهم توقفوا فى قبول الإسلام .

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة منى فسمع أصوات رجال يتكلمون فعمدهم ؛ حتى لحقهم وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج وهم:

أسعد بن زرارة (من بنى النجار) .

عوف بن الحارث بن رفاعة ، ابن عفراء (من بنى النجار) .

---

(١) قاموس البحر: أبعد موضع فيه غورًا .

(٢) الرحيق المختوم ١٣١ - ١٣٢ .

رافع بن مالك بن العجلان (من بنى زريق) .

قطبة بن عامر بن حديدة (من بنى سلمة) .

عقبة بن عامر بن نابى (من بنى حرام بن كعل) .

جابر بن عبد الله بن رئاب (من بنى عبيد بن غنم) [١] .

قال ابن إسحاق: فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «**من أنتم؟**» قالوا: نفر من الخزرج ، قال: «**أمن موالى يهود؟**» قالوا: نعم ، قال: «**أفلا تجلسون أكلمكم؟**» قالوا: بلى ؛ فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ، قال: وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم[٢] ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيًا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود ؛ فلا تسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ؛ فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك وتعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ؛ فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا[٣] .

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

الدرس المستفاد من إسلام ستة من الأنصار هو:

أن الصبر أينع ، والجهد أثمر ، واستغلظ زرع الدعوة وأخذ يستوى على سوقه ؛ ليعطى النتيجة والغلال .

إحدى عشرة سنة من المعاناة وعدم الاستقرار وتربص قريش بقتله ﷺ فى كل دقيقة

---

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٧٥ .

(٢) غزوهم: غلبوهم .

(٣) ابن هشام (١/ ٢٦٤ - ٢٦٥) .

وشعوره بالغربة الهائلة بين قومه وكافة الجماعات والقبائل المحيطة به فلا ينقص ذلك شيئًا من عزيمته ولا يضعف شيئًا من قوته وسعيه فلا ييأس ولا يضجر ولا يؤثر ذلك على شيء من أنسه بربه عز وجل.

إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر المتواصل في سبيل الله وحده هي الثمن والطريق إلى نشأة مد إسلامي عظيم ينتشر في مشرق العالم وغربه تتساقط أمامه قوة الروم والفرس وتذوب من حوله قيم النظم والحضارات.

ثمن من الجهاد والصبر والتعب وخوض الشدائد؛ كان من السهل جدًّا على الله - عز وجل- أن يقيم المجتمع الإسلامي بدونه، ولكن تلك هي سنة الله في عباده أراد أن يتحقق فيهم التعبد له اختيارًا كما تحققت فيهم صفة العبودية له اختيارًا.

ولا يتحقق التعبد بدون بذل جهد وليمحص الصادق من المنافق بدون عذاب أو استشهاد، والآن فلنتأمل في هذه الثمار التي أخذت تبدو على رأس إحدى عشرة سنة من دعوة الرسول ﷺ وطبيعتها وكيفية نموها:

أولا: جاءت هذه الثمار المنتظرة من خارج قريش بعيدة عن قومه ﷺ رغم جواره معهم واحتكاكه بهم فلماذا؟ لقد اقتضت حكمة الله الباهرة أن تسير الدعوة الإسلامية في سبيل لا تدع أي شك للمتأمل في طبيعتها ومصدرها؛ حتى يسهل الإيمان بها ولا يقع بها أي التباس بينهما وبين غيرها من الدعوات الأخرى.

من أجل ذلك كان الرسول ﷺ أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ومن أجل ذلك بعث في أمة من الأميين الذين لم يقتبسوا حضارة، ولم يعرفوا بمدينة أو ثقافة معينة، ومن أجل ذلك جعله الله مثال الخلق الكريم والأمانة والنزاهة.

* * *